الجزء الأول

د. موسى أبو مرزوق

مشوار حياة

ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال

إعداد: شاكر الجوهري

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

الفصل الثاني

طفولةُ المجازر

العدوان الثلاثي سنة 1956

طفولةُ المجازر
العدوان الثلاثي سنة 1956

في 1956/11/2 أقدمت القوات الإسرائيلية على احتلال قطاع غزة في إطار خطة العدوان الثلاثي التي تضمنت كذلك احتلال القوات البريطانية والفرنسية لمدن قناة السويس، بالإضافة إلى فرض السيطرة العسكرية على القناة ذاتها، التي كانت هي الهدف المُعلَن بالنسبة لكلٍّ من لندن وباريس، غير أن الهدف غير المُعلَن تمثل في نظام الرئيس جمال عبد الناصر الذي بدا في ذلك الوقت المبكر أنه يقود بلاده باتجاه التحرر من الهيمنة الغربية.

واستمر الاحتلال الإسرائيلي للقطاع حتى 1957/3/7، حين اضطرت القوات الإسرائيلية والبريطانية والفرنسية إلى الانسحاب تحت وطأة الإنذار السوفييتي بالتدخل، وأوامر الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower بضرورة الانسحاب الفوري من الأراضي المصرية. وقد كانت إرادة واشنطن هي الأكثر فاعلية في فرض انسحاب قوات العدوان الثلاثي، الأمر الذي أهَّلها لفرض النفوذ الأمريكي على المنطقة اعتباراً من ذلك التاريخ، بدلاً من النفوذين البريطاني والفرنسي اللّذَيْن كانا يتقاسمانها. وهذا ما يجعل المراقب يميل إلى تصديق الروايات التي نُشِرت لاحقاً عن أن واشنطن كانت على اطلاع مسبق على خطط ذلك العدوان، خصوصاً في ضوء متابعة سياساتها اللاحقة المنحازة إلى جانب الكيان الصهيوني ضدَّ الحق العربي، وحتى الآن.

الطفل موسى، ابن الخمس سنوات، لم يكُن يدرك شيئاً من الأبعاد السياسية لِمَا كان يجري حوله. غير أن ذاكرته تختزن الكثير من مفردات الوحشية الإسرائيلية التي مُورسَت مع أبناء شعبه الفلسطيني في تلك الرقعة بالغة الضيق التي أُطلِق عليها اعتباراً من سنة 1948 اسم قطاع غزة، والذي لا يزيد عرضه عن 14 كم فقط، ولا يقل عن 4 كم في وسط القطاع.

كان منزل أبو محمد يطل على الشارع، حيث إنّ الأرض التي تفصله عن الشارع كانت تخلو من أيِّ بناء. وعلى ذلك فقد كان أفراد أسرة أبو محمد، ومن ضمنهم الطفل موسى، يشاهدون أعمال القمع والتنكيل التي كان يستهدف بها جنود الاحتلال أبناءَ شعبه، ومن بينها التنكيل الجماعي بالرجال بعد جمعهم في الساحات العامة، والنقل الجماعي لجثث الضحايا في أعقاب المجازر الجماعية.

وتختزن ذاكرة موسى بعضاً من تلك المشاهد المأساوية، فهو ما يزال يذكر المشهدَ بالغ الكآبة المتمثّل في سيارة شحن (ترك Truck) المحملةِ بأعدادٍ كبيرةٍ من جثامين الشهداء الذين قتلهم جنودُ الاحتلال للتو، فيما كانت دماؤهم لا تزال تنزف وتخُطُ خطوطاً حمراء قانية على الشارع، خلف السيارة التي تُقلّهم إلى قبرٍ جماعي، ربما يكون قد اكتُشِفَ موقعُه بعد بضع سنين. وتختزن ذاكرتُه منظرَ سيارة مماثلة تمكّن من مراقبة دفن ضحاياها في الرمال في موقعٍ بين البحر ومزرعة زعرب.

وكان لتلك المناظر آثارٌ عميقةٌ في نفسية الطفل، لا سيّما تلك المتعلقة بمشاعر الأهل والجيران والأصدقاء وهم يودعون جثامين أبنائهم وإخوانهم وآبائهم وجيرانهم وأصدقائهم. ويذكر موسى أن مدينة اللجوء رفح شهدت العديد من المجازر الإسرائيلية البشعة وغير المبررة التي استهدفت المدنيين العُزل، وبلا أيّ سبب، لكنه يذكر أنه سمع من الكبار أن المجزرة الأكثر بشاعةً كانت قد ارتُكِبَت في خان يونس.

وللأسف، يقول أبو مرزوق إنه كان يشارك في ارتكاب هذه المجازر وحداتُ سلاح الحدود التي كانت تقتحم المنازل عبر كسر أبوابها وتحطيم وتخريب محتوياتها البسيطة التي كانت عبارة عن فرشات محدودة، وعدد مماثل من البطانيات، تكوَّمت كلُّها فوق صندوقٍ خشبي ربما احتوى بعض الملابس البالية. وكانت الفرشات والبطانيات تُوضع فوق الصندوق لافتعال فسحة في النهار داخل المنازل شديدة الضيق التي كانت تأوي عادةً عشرة أشخاص يتوزعون داخل غرفتين صغيرتين أو ثلاثة.

وكان جنود الاحتلال ينكثون الملابس، ويتعمدون خلط المؤن القليلة التي تحتويها تلك المنازل بالغة التواضع، العدس والقمح والطحين والأرز إلخ... لقد كانت حياة اللاجئين الفلسطينيين أقرب ما تكون إلى حياة البدو الرُحَّل.

غير أن أكثر مشاهد البشاعة التي تختزنها ذاكرة ذلك الطفل هو ذلك المشهد الذي قُتِلَ فيه شاب في العشرين من عمره أمام ناظري أبيه. كان تمّ جمعُ عددٍ من أبناء المدينة في طابور، وكان أحد الجنود الإسرائيليين الذي يشرف على طابور العذاب والتنكيل يمسك بيده عصا غليظة يضرب بها السائرين في الطابور بمعدل واحد من كل اثنين، فإذا فلت الأولُ من الضربة، كانت من نصيب الثاني، وهكذا.

ويذكر شقيقه العميد محمود تلك الواقعة بشكلٍ أفضل، حيث إنه كان أكبرَ سناً من موسى. يقول إن عبد الغني سماره وابنه إبراهيم كانا يسيران في الطابور الذي سِيقَ به أبناءُ المدينة إلى ساحة المدرسة الأميرية الرسمية في رفح. حدث ذلك في 1956/12/11، حين وُجِّهت الأوامرُ لجميع الرجال من سن 18 إلى سن 45 للتجمّع بين الساعة الرابعة والسادسة مساءً. وقد وُجِّهت هذه الأوامر بواسطة مكبّرٍ للصوت طافت به طائرة هليكوبتر Helicopter كل أرجاء المدينة.

وفي أثناء جمع الرجال، كانت هنالك قواتٌ تقوم بتفتيش البيوت بحثاً عن المتخلّفين وعن الأسلحة. وكان الجنود خلال ذلك يسرقون من المنازل الخبز والبط والدجاج الذي يربيه اللاجئون ليقتاتوا منه.

الذين تأخروا عن التوجه إلى مكان التجمع المُعلَن عنه، تمَّ قتلُهم من قِبَل جنودٍ آخرين في الطريق. وعلى باب المدرسة التي أُعلِنت مكاناً للتجمع، وقف جنود كُلّفوا بمهمة توجيه ضربات عاطبة لرجال المدينة بواسطة عُصي غليظة، وأعقاب البنادق. وكانت هذه الضربات توُجّه لكل فلسطيني تبدو صحتُه جيدة.

في هذه الأثناء وصل إلى باب المدرسة عبد الغني سماره يتقدمه ابنه إبراهيم، وكان شاباً يافعاً في العشرين من عمره، فبادره أحد الجنود بضربة عصاً غليظة على رأسه أوقعته أرضاً في حالة شبه إغماء. فجثا الأب فوق ابنه، فما كان من الجندي إلا أنْ أطلق النار على الاثنين وأرداهما قتيلين.

أما الذين قيّض لهم الدخول إلى ساحة المدرسة، فقد طُلب من العسكريين منهم الوقوف جانباً، حيث أخذتهم سياراتٌ عسكريةٌ إلى مكان مجهول. والذين قُتلوا في الشوارع من الذين تخلفوا أو تأخروا عن موعد الجمع، نُقِلت جثامينُهم إلى مكان قرب البحر يُدعى تلّ زعرب حيث أُلقِيت فيه، وبعد جلاء القوات الإسرائيلية اكتُشِفت حفرتان كبيرتان هما عبارة عن قبرين جماعيَّيْن لضحايا المجازر، وُجِدت في كل واحد منهما ما بين 200 إلى 300 جثة متعفنة؛ حيث أمكن تبين أن كل واحدة منها قُتِل صاحبُها بواسطة إطلاق الرصاص إلى الوجه. وقد كانت الوجوه مشوهة، وغير واضحة المعالم بسبب الدماء، وقد تمكن بدويان من معرفة جثة أخيهما من خلال تفقُّد أحد أصابع رجليه الذي كان مبتوراً من قبل.

القتل كان يتم بلا سبب، هكذا أدرك الطفل موسى، كان مجرّد تعبير عن الكراهية والعداوة، وتنفيس للحقد. وللسبب ذاته كان يتم تجويعُ الناس، تماماً كما يحدث الآن. ولذلك، وكما اضطُر والده إلى "استلاب" خيمتين في بداية اللجوء، فإن أخاه محمود الذي كان قد أصبح شاباً يافعاً لجأ إلى "الاستيلاء" على محتويات السيارات الإسرائيلية التي كانت تقل محتويات المعسكرات المصرية الخاوية في سيناء.

وتختزن ذاكرة الطفل التي كبرت عاماً في ظلّ الاحتلال، أنه منذ الأيام الأولى للاحتلال في سنة 1956، بادر الإسرائيليون إلى مصادرة مساحات كبيرة من الأراضي زرعوها بطاطس، غير أن أهالي القطاع هم الذين حصدوها، بعد أن تحقّق الجلاء، منهياً بذلك أوّلَ محاولة استيطان إسرائيلي في قطاع غزة.

وتبطل محاولة الاستيطان الفاشلة تلك دعاوى "إسرائيل"[1] ورئيس وزرائها آنذاك ديفيد بن غوريون David Ben–Gurion بأن الاحتلال إنما تسبّبت به العمليات الفدائية التي كانت تقوم بها مجموعات فلسطينية بقيادة الضابط المصري مصطفى حافظ. وضمن إحدى تلك المجموعات كان أبو جابر ابن عم أبو محمد، والد موسى. وضمن مجموعات أخرى، كان هناك عددٌ من جيران

[1] عندما يذكر اسم الكيان الصهيوني في نصوص الكتاب فإنه يكتب ضمن علامات تنصيص "إسرائيل"؛ إلا إذا كان الاسم مذكوراً في وثيقة فإنه يكتب كما ورد في الوثيقة دونما تغيير.

موسى. وكان الطفل يسمع من الكبار بعضاً من قصص البطولة التي كان يصنعها الفدائيون الأوائل الذين تمكن بعضهم إثر الاحتلال من الإفلات إلى الضفة الغربية التي كانت تخضع للسيادة الأردنية آنذاك، عبر الأراضي الفلسطينية التي أُقِيمَت عليها "إسرائيل".

وبعد الجلاء، استأنفت بعض مجموعات الفدائيين مهامها، عبر خطوط قوات المراقبة الدولية وحفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، التي أصرت الحكومة الإسرائيلية على أن تكون معسكراتها فقط داخل أراضي القطاع، مع السماح لأفرادها بقضاء الإجازات داخل الأراضي المحتلة.

وبعد الجلاء، بعدة أشهر فقط، كان الطفل موسى أبو مرزوق يستعد لدخول المدرسة لأول مرة في حياته. غير أن موسى افتقد فرحة الأطفال في كل بلاد الدنيا حين يذهبون إلى المدارس للمرة الأولى. فقد كان ذهابه إلى المدرسة ملتحقاً بالصف الأول ابتدائي مناسبة قرع فيها جرسُ اللجوء رأسَه بكل عنف.

في كل بلاد الدنيا يذهب الأطفال إلى رياض الأطفال التي تؤهلهم لدخول المدارس الابتدائية، أما اللاجئون في قطاع غزة، فلم تكن لديهم رياض لأطفالهم، الذين كانوا يذهبون إلى المدارس مباشرة، ولكنها ليست أي مدارس، إنها مدارس اللاجئين التي أقامتها وكالة الأونروا، فيما كان يذهب أبناء غير اللاجئين إلى المدارس الرسمية العادية. وكان الفقر الشديد، والإجراءات الصارمة هي القاسم المشترك لمدارس الوكالة. وفي إطار هذه الإجراءات التي تستهدف الحدَّ من الأمراض السارية والأوبئة، كان يُحلَق شعر الطلاب على الصفر صيفاً شتاءً لمنع تكاثر القمل في رؤوسهم. وكان يخضع الطلاب لتفتيش يومي على النظافة. وكان يُفرض على كل طالب أن يتناول داخل المدرسة كوب حليبٍ مُعدّاً من مسحوق الحليب المجفف، وزيت كبد الحوت كريه الرائحة. وكان الطالب يُكرَه على شرب كوب الحليب، وابتلاع حبة زيت السمك.

وما يزال أبو مرزوق يذكر ليلة ذهابه الأول للمدرسة، حيث سهر أحد أشقائه طوال الليل ليصغِّر بنطالاً لشقيقٍ آخر له، ليصبح مناسباً لمقاس موسى. أما الحقيبة التي أخذها معه إلى المدرسة فقد صُنعت من قماش أكياس الدقيق التي كانت تحمل

عبارة "هدية من شعب الولايات المتحدة". غير أن عقل الطفل لم يكن يستوعب تلك المفارقة: الولايات المتحدة ترسل معوناتٍ غذائية للشعب الفلسطيني، وترسل في الوقت نفسه الرصاص إلى الجيش الإسرائيلي ليَقتلَ به الفلسطينيين! وعندما كبر الطفل قليلا أدرك أن الولايات المتحدة لم تكن ترسل الرصاص فقط لـ"إسرائيل"، وإنما كانت ترسل لها أيضاً، وما تزال، البنادق والمدافع والدبابات والطائرات والصواريخ...إلخ.

الفرح الذي افتقده الطفل منذ ولادته، راوده، كما راود كل الفلسطينيين، لاجئين وغير لاجئين، وكل العرب، مع قيام الوحدة السورية – المصرية في شباط/ فبراير 1958، حين كان ما يزال في بداية المرحلة الدراسية الابتدائية. وهو قد فرح من قبيل المشاركة للأهل والجيران والأصدقاء الذين كان الانطباع السائد لديهم، كما لدى كل العرب، أن الوحدة كانت الطريق لتحرير ما اغتُصِب من أرض فلسطين سنة 1948. وكان الشعور السائد أن الوحدة من شأنها أن تطبِقَ فكّي الكماشة العربية على "إسرائيل"، "الفك السوري" من الشمال، و"الفك المصري" من الجنوب. وما كرّس هذا الشعور أن قيام الوحدة أعقب الجلاء الإسرائيلي عن قطاع غزة، والبريطاني، والفرنسي عن مدن قناة السويس، بعشرة شهور، كما أنه ترافق مع تصعيد سبق قيامها وأعقبه على الجبهة السورية التي كانت تشهد معارك متتالية مع الجيش الإسرائيلي.

واندفاعاً بهذا الشعور، كان موسى يرافق أقرانه في السير باتجاه "خط وقف إطلاق النار"، ليرى عبر السياج الشائك الجانب الآخر من أرض الوطن، حيث "التراكتورات" تقلّب الأرض والمزارع الخضراء، ليتفتح ذهنه على حقيقة أن له أرضاً أخرى طُرِدَ أهله منها إلى المخيم الذي يقطنه الآن وسط كل مظاهر وعوامل البؤس والشقاء، حيث لا توجد شبكة مياه، مما يجعل من الماء سلعة نادرة، وحيث الحمامات والمرافق الصحية مشتركة بين سكان الحي، وليلمس ذلك الطفل مبكراً بعضاً من مظاهر التفوّق الحضاري الذي يقف بين أسباب الهزيمة العربية، فيوطّن عزيمته على ضرورة سدّ هذه الفجوة الحضارية عبر التصميم على متابعة تحصيله العلمي حتى الحصول على شهادة الدكتوراه.

وقد ترجم حبَّه لأرض الوطن بالاهتمام باستغلال الأرض والعناية بها وزراعتها مستفيداً من خبرة والده الزراعية في يبنا قبل الهجرة والتعبير عن حبِّه للوطن وإعماره.

ولم يكن هذا مشهد البؤس الوحيد، فما يزال موسى يذكر أن والده كان يقضي ساعاتِ الليل في توزيع الأواني المنزلية بين الفرشات التي يفترشونها نياماً على الأرض كي تستقبل مياه الأمطار المتسربة عبر ألواح الزينكو الذي صنع منه سقف المنزل. كما كان يقضي تلك الساعات في ليالي الصيف، متتبعاً حشرات "البق" على الجدران مستهدياً إليها بواسطة نور لمبة كاز؛ كي يتمكن أبناؤه من النوم، ولم تكُن المدرسة أحسن حالاً فقد كانت الصفوف ذات السقف القرميدي لا تقي برداً ولا حراً، وما زال موسى يذكر أنه في الشتاء كان الدم ينزف من شفتيه، وظهر كفّيه، ولا يوجد ما يقي البرد ولا دواء يوقف ذلك النزيف عبر الشتاء القارص.

وبحكم كل هذه العذابات والشعور بالضعف أمام العدو الإسرائيلي الذي يغتصب الأرض ويشرّد الشعب، كان الأمل، كل الأمل في العروبة والإسلام، وهكذا كانت البدايات الأولى لتديُّن الطفل موسى على يديّ مدرّسهِ حسن أبو الخير الذي كان مندفعاً في شعوره القومي العربي دون انتماء حزبي، وكان يُدرِّس موسى مادتي اللغة العربية والتربية الدينية. وعلى يدي أبو الخير تبلورت بدايات الإحساس الوطني والديني لدى الطفل الذي حين بلغ السابعة من عمره، بدأ يتسابق وأقرانه للصلاة في المسجد وخصوصاً مسجد الهدى، على أمل أن يرى هناك مُدرِّسَه. وكان التلاميذ المحبون لمدرسهم يعاودون الذهاب إلى المسجد من أجل رؤية مدرسهم غير مبالين إزاء تعنيف الشيوخ لهم الذين كانوا يطردونهم من المسجد بقسوة.

وإلى جانب المسجد، كان الطفل موسى مواظباً أيضاً على متابعة البرامج الحماسية لإذاعة صوت العرب، وخصوصاً برنامج "أبطال الغد" الذي كان يبث صباح كل يوم جمعة، وتواصلت هذه المواظبة على مرِّ السنين، مع ولوج المرحلة الدراسية الإعدادية. وكان البرنامج يعرض في كل حلقة لمدينة فلسطينية، وكان الأكثر تأثيراً في الفتيان مع بداية تشكّل الرجولة لديهم. وكان ذلك البرنامج يدفع

كل أحلام وتفكير الفتى موسى نحو ضرورة العمل عبر "خط وقف إطلاق النار"، و"تحرير فلسطين"، وجمع شمل الأمة العربية. وبفضل ذلك البرنامج تولد لديه حب مادة التاريخ، والمتابعة السياسية، مما جعل مدرِّس التاريخ يطلب من موسى بإلحاح في المرحلة الثانوية أن يتخصص في الفرع الأدبي ليواصل دراسة التاريخ والتفوق فيه، غير أن تخصصه في الفرع العلمي لم يقلّل من اهتمامه بالتاريخ، ولذلك فإنه كان يراوده شعور بالندم لإقدامه على هذا التخصص، حتى بعد أن بدأ يدرس الهندسة في الجامعة.

وقد برز في المسابقات، ونسبة الأحداث إلى تاريخ وقوعها، والتعرُّف على العواصم والموانئ والمساحة وعدد السكان وأهم الأحداث التاريخية الجارية.

وقد تميّز بهواية جمع الطوابع النادرة للدول والممالك والإمارات العربية والأجنبية، التي تعرف بالدول وشعاراتها ومعالمها، كان يجمعها من على طرود البريد التي ترِد من الفلسطينيين في دول الشتات إلى أهاليهم.

وقد انعكس حبُّه للتاريخ على حياته العملية، بل إنه في أثناء فترة اعتقاله في السجن الأمريكي عكف منكبًّا على قراءة تاريخ الطبري الذي يقع في عشرة مجلدات تحتوي دِفّتا كل واحدٍ منها على 700 صفحة.

أما متابعاته السياسية فقد عبّرت عن نفسها خلال سنوات المرحلة الإعدادية من خلال قراءة الصحف، والمواظبة على قراءة مقالات محمد حسنين هيكل. وكان أخوه محمود هو الذي يُحضِر له الصحف، ويهتم بدراسته، ويغريه على ذلك بالنقود.

ولا يغيب عن أبو مرزوق أن يسرد كيف ومتى كان استخدامه لأول فرشاة أسنان في حياته اشتراها له أخوه محمود بعد أن دخل الكلية الحربية، وتخرّج منها. وكان عبد الناصر قد فتح باب العسكرية أمام أبناء قطاع غزة في أعقاب العدوان الثلاثي، وبدأ الجيش المصري يستوعب فلسطينيين في صفوفه مثّلوا نواة جيش التحرير الفلسطيني الذي تشكل بعد تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية سنة 1964.

كان محمود شغوفاً بأخيه موسى الطالب في المرحلة الإعدادية، ويهتم به بشكلٍ غير اعتيادي. وكان عندما يريد أن يتسلّى في فترات إجازته، يفرض على موسى أداء الألعاب الرياضية التي يؤديها جنوده. وقد عرف عنه أصدقاؤه جَلَدَه وانتظامه ومثابرته على أداء التمرينات، وكثيراً ما كانوا يلتقون ويجتمعون عنده للتنافس في أداء التمرينات الرياضية والألعاب السويدية.

وضمن إطار الحياة العسكرية اشترى لموسى أولَ فرشاة أسنان أسالت الدم المكتنز في لثتيه جرّاء عدم استخدام الفرشاة من قبل، ممّا جعله يكره تلك الأداة التي لم تكُن قد عرفتها منازل مخيمات اللاجئين الفلسطينيين إلا ما ندر.

Musa Abu Marzuq: A Life Journey

Memoirs of Seeking Refuge, Emigration and the Years of Struggle

هذا الكتاب

أن تولد لاجئاً، وأن تعيش مناضلاً، وأن يضعك الله سبحانه في مشهد الصدارة لقيادة حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، فهذه ملحمة ومشوار حياة فيه الكثير من التحديات، ويتطلب من القائد حكمة بالغة وصبراً جميلاً، للحفاظ على توازن المسيرة وتحقيق الأهداف.

في هذا الكتاب، استعراض لصفحات النشأة في المخيم، ثم سنوات الدراسة والعمل داخل الوطن وخارجه.

بلا شك، كانت المحطة الأهم في هذه السرديّة، هي سنوات العمل، ثم الاعتقال في أمريكا، على خلفية قيادة المكتب السياسي لحركة حماس.

عامان كان فيهما الكثير من الأحداث والمعاناة والفرص لإبراز القضية الفلسطينية، وتجسيد خطاب حماس السياسي كأحد أهم معادلات الصراع مع الاحتلال، وفضح جرائمه التي كانت أمريكا —بانحيازها لـ"إسرائيل"— تعمل على تعطيلها، وإفشال أي جهد دولي أو إنساني لنُصرة الفلسطينيين وقضيتهم.

هذا الكتاب يعرض الجزء الأول من الرواية، والتي ستكتمل تفاصيلها فيما هو قادم من أجزاء أخرى إن شاء الله.

ISBN 978-9953-572-82-6

9 789953 572826

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations

ص.ب: 5034-14 بيروت - لبنان

تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+

info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت